

بَارِئُ الرِّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثَرَهَا فِي رُفَاتِ الْخُطَابَةِ

دكتور / محمد عبد العزيز داود

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

للخطابة جذور ضاربة في أعماق الزمن ممتدة عبر مسيرة التاريخ
البشرى • فمنذ فجر الانسانية تفجرت ينابيع الكلام على السنة بنى الانسان
وفق سنن الفطرة التى فطر الله بنى آدم عليها قال تعالى فى سورة الرحمن
(الآيات ١ - ٤) « الرحمن علم القرآن خلق للانسان علمه البيان »

فالتخاطب والتفاهم من أهم خصائص الانسان ، والخطابة من أرقى
أنواع البيان فهى تخاطب العقول بالقول الحق وتستجيش العواطف بالكلمة
المؤثرة وتثير الحماس بالعبارة البليغة وتحى القلوب وتشرح الصدور
« بالحكمة والموعظة الحسنة » •

وهى أداة بيان الأنبياء والمرسلين لتبليغ وحى رب العالمين قال تعالى
فى سورة ابراهيم (آية ٤) •

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فىض الله من يشاء
ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » •

فان من رحمة الله بعباده أن يكون كل نبى من بنى قومه تربطهم به
وشائج القربى ووحددة اللسان وعمق المشاعر •
جاء فى مسند الامام أحمد (ج ٥ ص ٢٥٨) عن أبى ذر رضى الله عنه

قال : قال رسول الله ﷺ :

« لم يبعث الله عز وجل نبيا الا بلغة قومه » .

قال تعالى : فى سورة آل عمران (آية ١٦٥) .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين »
والامتنان فى هذه الآية يحتمل عدة وجوه ذكرها الامام القرطبى فى تفسيره (الجامع لأحكام القرآن الكريم ص ١٥٠٥) وهى :

١ - أن يكون معنى « من أنفسهم » أى بشر مثلهم فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم علم أن ذلك من عند الله .

٢ - وقيل « من أنفسهم » أى منهم فشفروا به ﷺ فكانت تلك المنة .

٣ - وقيل « من أنفسهم » ليعرفوا حاله ولا يخفى عليهم طريقته .

٤ - قرىء « من أنفسهم » بفتح الفاء يعنى أشرفهم لأنه ﷺ من بنى هاشم وبنو هاشم من قريش وقريش أفضل العرب .

الخطابة لدى العرب :

تقع شبه الجزيرة العربية فى الجزء الجنوبى الغربى لقارة آسيا ويحدها من الغرب البحر الأحمر ومن الشرق الخليج العربى ومن الجنوب المحيط الهندى ومن الشمال خط وهمى يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب على رأس الخليج .

وقد قسمت شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام الى مناطق الحجاز ونجد وتهامة واليمن والعروض .

وكان يقطن تلك البلاد ثلاث طبقات :

١ - العرب البائدة :

وهم أصل العرب وقد بادوا جميعاً ومن هؤلاء قوم عاد ونبيلهم هود
وتمود ونبيلهم صالح . وتوجد بعض آثار لقوم صالح منحوتة في الصخور
بوادي القرى - بالحجاز .

٢ - العرب العاربة :

وهم الطبقة الثانية من العرب وهم أبناء قحطان الذي ينتهى نسبة
الى سام بن نوح ومن نسلهم عرب اليمن ومن أشهر قبائلهم حمير
وكهلان وهمدان والأزد .

٣ - العرب المستعربة :

وهم الطبقة الثالثة من العرب وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم ويقال
لهم العدنانيون أو عرب الشمال . أول نشأتهم بمكة حينما نزلت قبيلة
جرهم واقامت مع اسماعيل وتزوج منهم فلما تناسلوا انتشروا في
الحجاز وتهامة وانقسموا الى فرعين هما :

١ - مصر ومن أشهر قبائلها قيس عيلان ومدركة الذين منهم قريش .

٢ - ربيعة ومن أشهر قبائلها بكر وتغلب .

ولقد كان العرب أرياب حضارة قديمة لا تقل شأنًا عن الحضارات
المعاصرة في ذلك الوقت فلقد نشأت حضارة الدولة المعنية باليمن
ما بين عام ١٣٠٠ قبل الميلاد الى عام ٣٦٠ قبل الميلاد وحضارة
سبأ التى ورد ذكرها في القرآن الكريم وكانت في القرن الثامن
قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الثانى قبل الميلاد وحضارة
حمير والتى تتابع عليها الاحباش والفرس وانتشرت اليهودية
والمسيحية بها حتى دخلت اليمن الاسلام عام ٦٢٨ م .

كذلك قامت حضارات في ممالك شمال شبه الجزيرة العربية
ومنها مملكة الأنباط في الجنوب الشرقي من فلسطين ومملكة
تدمر في البادية الواقعة بين العراق والشام ومملكة الحيرة التي
قامت في جنوب غرب العراق على نهر الفرات ومملكة الفساسنة
وكذلك قامت حضارات في وسط الجزيرة وتشمل نجد والحجاز
وأهم مدن الحجاز مكة المكرمة - والمدينة المنورة .

مكانة الخطابة لدى العرب :

هذا ولقد كان العرب لسنا مقاويل أصحاب بلاغة وفصاحة عبروا عنها
شعراً موزوناً أو كلاماً منثوراً ولقد كانت حياتهم القبلية تقوم على الشهامة
والبرورة والنجدة والمفاخرة والمنافرة والحروب التي تشتعل نارها لأوهى
الأسباب وكان هذا ميداناً فسيحاً للخطابة .

يصور الجاحظ في كتابه البيان والتبين (ص ١٢٦) ما كان عليه
العرب في الجاهلية من فصاحة وبلاغة وقدم راسخة في الخطابة فيقول :

« كان العصر الجاهلى وبخاصة قبيل الاسلام ملحمة لقراع الألسنة
وتصاول الفصحاء في الأسواق الأدبية والمحافل الجامعة ولم يكن لأشراف
القبائل وسادات العشائر عند تفاقم الفتن وتدافع الخصوم ولا للأبطال في
صعصة الحروب ولا للحكماء في سعة الأمن أو ضيق الفرع ولا للآباء عند
تصرم الأعمار ولا للأمهات عند الإهداء .

لم يكن لهؤلاء جميعاً بد من كلام ، مؤثر طويل يجذون به قرون الفتنة
ويردون الغوى عن الضلالة ويصيبون مقاطع الرأي ويصرفون الناس من
قبله الى السلامة .

وكانت الخطابة فيهم طبيعة وقريحة كالشعر لا تحملهم عناء ولا تكلفهم رهقا وكانوا يدرّبون عليها فتياهم في حدائثهم ولهم بها عناية خاصة فحفظوا بعض الخطب وتناقلوها .

ولقد ساعد على ارتقائها وتعدد أغراضها وتنوع أساليبها ما جبل عليه العربي من صفاء الذهن ونقاء القريحة

يقول صاحب تاريخ العرب (١) عن سر تقدم العرب في فن الخطابة :
أن الخيال ملهمها والحماس ملهمها ، والبلاغة مادتها والحجة عدتها
والحرية محرابها وأهل الفروسية والنفوس الأبية شعبها .

وقد قضت طبيعة الأقليم أن يكون العربي حراً كطيره ووحشه وهوائه
رحب الخيال كأديمه وصحرائه . صافي القريحة صفاء جوه وسمائه متحمساً
عصبى المزاج بما يستتبعه ذلك من ذكاء يظهر في لغته ويتجلى في حضور
بديته . . . وقد لا تجد شعباً يمتلكه الإعجاب بالقول الجميل ويحركه الكلام
كالعرب وقل أن تجد لغة تستطيع أن تسيطر على عقول أهلها وتترك في
نفوسهم آثاراً لا تقاوم كاللغة العربية .

أشهر خطباء الجاهلية :

اشتهر العديد من خطباء العرب في الجاهلية مثل قس بن ساعدة
الآبادي خطيب عكاظ وأكثم بن صيفي خطيب العرب وقاضيه ، وكعب بن
لؤي وسحبان بن وائل الباهلي وعمرو بن معد يكرب وقيس بن سنان .

ميادين الخطابة في العصر الجاهلي :

إذا ما كنا بصدد البحث في بلاغة الرسول ﷺ وأثرها في الخطابة فأننا
نضع بين يدي القارئ بعض ميادين الخطابة في العصر الجاهلي ليقف

(١) فيليب حتى ص ١٠٧

الباحثون والدارسون على أساليب الخطابة لدى الفصحاء والبلغاء . وليتزود الخطيب والداعية بتلك الثروة اللغوية الرفيعة التي تناقلتها كتب الأدب والتاريخ فتعود للخطابة مكانتها وللکلمة قيمتها ومن هذه الأغراض ما يلي :

١ - السفارات والوفود :

لم يعيش العرب بمعزل عن بعضهم أو بعيدين عن جيرانهم من الأمم والممالك المجاورة ولكن كان لهم اتصالات وسفارات ووفود تزد إلى القبائل والامارات المتاخمة للفرس والروم وكانت تلك اللقاءات مجالا خصبا لفرسان البيان وميدانا فسيحا للبلغاء وكان خطبائهم يلقون الخطب البليغة أمام ملوك الفرس والروم .

ولقد قدم وقد قريش بزعامه عبد المطلب جد الرسول ﷺ إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن لانتصاره على الأحباش وألقى عبد المطلب بن هاشم خطبة أمامه قال فيها (١) :

ان الله قد أحلك - أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وانبتك منبتا طابت أدومته ، وعذبت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه . في أكرم موطن وأطيب معدن . فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخرص به البلاد ورأس العرب الذي له تنقاد . وعمودها الذي عليه العمداء ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد وسلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يخمد من كنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجتك من كشف الكرب الذي قد فدحنا نحن وفد التهنة لا وفد المرزعة .

وقد بشر سيف بن ذي يزن عبد المطلب ببعثه الرسول ﷺ .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٣٢٨

٢ - النصائح والحكم :

لم يخل تاريخ العرب في الجاهلية من حكماء فصحاء يسدون القول
الصائب والنصح السديد والحكمة الطيبة التي تعبر عن فطرة نقية ومن
هؤلاء :

كعب بن لؤى : وكان خطيبا مفوها يحض على الخير ومكارم الأخلاق
وأكثرهم بن صيفى حكيم العرب وقاضيهما وخطيبها الذى لا ينزع . وقس بن
ساعدة الايادى الذى كان خطيب عكاظ المرموق الذى تفد اليه الجموع لسماع
كلامه . ومن كلام حكمائهم وصية ذى الأصبع العدوانى لابنه أسيد حينما
حضرته الوفاة قال له (١) :

يابنى أن أباك قد فنى وهو حى وعاش حتى سئم العيش وأنى موصيك
بما أن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى : -

الن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشئ يسودوك ، وأكرم صغارهم كما
تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بمالك
وأحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة
فى الصريح فان لك أجلا لا يعدوك وكن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك
يتم سؤددك » .

ومن المواعظ المشهورة موعظة قس بن ساعدة الابادى بسوق عكاظ
حيث قال : « أيها الناس : اسمعوا وعوا من عاش مات وكل ما هو أت أت
ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهى ، وبحار تزفر وجبال
مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة أن فى السماء لخبرا ، وأن فى الأرض
لعبرا . . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا فأقاموا أم تركوا

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ١٢٠

فناموا يقسم قس بالله قسماً لا اثم فيه أن الله ديننا هو أرض له وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه انكم لتأتون من الأمر منكراً (١) » .

٣ - التحريض على القتال :

عاش العرب قبل الاسلام بين ظلال الجاهلية العمياء والعصبية الحمقاء تنشب نيران الحرب لأوهى سبب ويشتعل لهيب النار لسنوات عديدة يندفعون الى ساحات الوغى دون روية وتدبر كما قال شاعرهم (٢) :

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم

طاروا اليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

للنائبات على ما قال برهاننا

كما كانت شبه الجزيرة العربية ميدانا للغارات المتبادلة بين القبائل العربية حيث يغير القوى على الضعيف فيجلبه عن موطن الماء وأماكن الكلاء ويغصبه ما له وابله ومتاعه ويسبى نساءه كما كانوا يشنون الغارات المفاجئة بين الحين والحين على أطراف دولتى الفرس والروم وكان لهم بفنون القتال ولا سيما فى الصحراء خبرة طويلة كأن حياتهم خلقت للنزال والطعان وقد انعكس هذا على شعرهم ونثرهم فوسط لهيب المعارك ووهج الأسنة يعلو هتات الشعراء والخطباء قال هانىء بن قبيصة الشيباني يحرض قومه على الحرب ضد الفرس فى معركة ذى قار حيث انتصر العرب عليهم وانزلوا بهم لأول مرة هزيمة ساحقة :

يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لا ينجى من

القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنيا .

(١) العقد الفريد لابن عبدبره ج ١ ص ١٥٦

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٥

يا معشر بكر : استقبال الموت خير من استدباره .

الطعن في الثغور والنحور أكرم منه في الاعجاز والظهور ، يا آل بكر

قاتلوا فما للمنايا من بد (١) .

كما كانت الخطابة تشمل المفاخرة والمنازعة والتعازي والتنهاني واصلاح ذات البين مما ينبىء أن ملكة الخطابة لدى العرب لا تقل من الرومان واليونان بل أن العرب أقدر على الابانة وأملك لنواصي الكلمة بما جبلوا عليه من فصاحة وبلاغة ذاع صيتهم بها .

هذا ولقد تميزت الخطابة لدى العرب قبيل الاسلام بالسمات

التالية (٢) :

١ - قوة وجزالة حتى تصل أحيانا الى الخشونة ولعل السبب في ذلك يرجع الى :-

أ - قوة نفوسهم وشدة بأسهم واندفاعهم في حماسة .

ب - معيشتهم في الصحراء ببأسها ولأوائها وشدتها .

ج - مناسبة تلك الكلمات للموضوعات التي قيلت فيها .

٢ - وقد كان في كلماتهم الحوشية الغربية ولعل هذا من لغة حمير التي طفت عليها لغة قريش حتى أخذت في الاندثار أما عن معاني الخطب، في الجاهلية فيقول عنها المرحوم الشيخ محمد أبو زهره ما يلي :-

أ - فطرية تنشأ عن اللمحة العارضة والفكرة الطارئة وعفو الخاطر من غير كد للفكر ولا تعمق في النظر لأنهم لم يكونوا أهل علوم يسودهم

(١) الامالي لابن علي القالي ج ١ ص ١٦٩
(٢) الخطابة للمرحوم الشيخ محمد أبو زهره ص ٢٣١

التفكير المنظم والتقسيم المستقرى والمتتبع لكل اشتات الموضوع ليجمع
شملا في خطبة ويضم متفرقا في بيان .

ب - جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء وغير سلسلة الأفكار .

ج - كانت تمتاز الخطابة بصدقها وعدم الاغراق والمبالغة فيها وذلك
لما فيهم من صراحة وحب للصدق والحقيقة .

د - تتسم نصائحهم ووصاياهم بمعان اجتماعية وخلقية عالية ولكنها
في جملتها ليست مبنية على دراسة وبحث بل هي صورة لتجارب
الحياة . تجيء على الألسنة من غير كد للذهن ولا تعمق في
الدرس .

كما كان أسلوبهم لا تكلف فيه ولا صناعة وانما يجرى على ألسنتهم
ما تجيش به مشاعرهم وخواطرهم .

كما كانوا يلجأون الى السجع بل كان يتعمده البعض ويتكلفه .

مما سبق تتضح مكانة الخطابة لدى العرب قبييل الاسلام .

ومع ما اتصف به العرب قبل الاسلام من بلاغة في البيان وفصاحة في
اللسان الا أنه كانت تسيطر عليهم حياة الجاهلية من ضلال العقيدة وفساد
الخلق والتفاخر بالأحساب والأنساب وتناول القبائل على بعضها بالقبح
والهجاء فانحصرت بلاغتهم فيما يعبرون به عن حياتهم شعراً أو نثراً فلما
شرف العرب ببعثة الرسول ﷺ صاغ الاسلام العرب صياغة جديدة وانتقل
بهم الى طور في الحياة مألوفه من قبل وحملهم رسالة ما فكروا في حملها
قبل نبوة الرسول ﷺ .

وبرزت الى الوجود أمة العرب تحمل على عاتقها وحى السماء
ورسالات الأنبياء وتتولى قيادة الأمم وريادة الشعوب الى الايمان بالله
وملائكته ورسله واليوم الآخر .

قال تعالى : فى سورة البقرة (آية ١٤٣) .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيدا »

وقال تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله » .

وما تبوأَت العرب هذه المكانة الرفيعة وما بلغت تلك المنزلة الفريدة
الا بأمرين عظيمين :

الامر الاول : نزول القرآن بلغتهم :

فلقد شرفت العرب حينما تنزل القرآن بلغتها وتليت آياته بلسانها .

قال تعالى : فى سورة الشورى (آية ٧) .

«وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لنتنذر أم القرى ومن حولها وننذر
يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .

ولم يكن القرآن الكريم مجرد آيات تنزلت بلغة العرب فحسب ولكن
كان المعجزة الخالدة التى أيد الله بها الرسول ﷺ متحديا العرب - وهم
أرباب الفصاحة والبلاغة - أن يأتوا بمثله أو بعشر سورته أو حتى بأقصر
سورة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

قال تعالى : فى سورة الاسراء (آية ٨٨) :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » •

• وحينما أعيتهم فصاحته وأعجزتهم بلاغته ووقفوا مذهولين أمام سحر
بيانه جنحوا الى التشكك فيه وأطلقوا الافتراءات من حوله والأكاذيب ضده
ولقد حكى القرآن الكريم وسائل تطاولهم عليه وأساليب النيل منه قال تعالى
« وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون
فقد جاءوا ظلماً وزوراً » •

• « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملئ عليه بكرة وأصيلاً »
سورة الفرقان (٤ ، ٥)

• ونهوا الناس عن سماعه وأمروهم باللغو فيه •

قال تعالى :

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »
سورة فصلت (٢٦)

• قال ابن عباس : قال أبو جهل اذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى
لا يدري ما يقول :

• وقيل انهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن •

قال مجاهد :

والغوا فيه بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوا (١)

(١) تفسير القرطبى ص ٥٨٠٠ طبق الشعب •

ولقد مضوا في بث الأكاذيب ونشر الافتراءات ضد القرآن الكريم والرسول ﷺ حتى سلكوا في هذا مسلكا يستحيل على العقل تصديقه وذلك حينما زعموا أن الرسول ﷺ تلقى القرآن من رجل أعجمي كان بمكة قال تعالى :

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » •

سورة النحل (١٠٣)

ومع محاولات النيل من القرآن الكريم فإن العرب بحسهم البياني وتذوقهم البلاغي كانوا يصغون السمع له ويرهفون مشاعرهم لآياته رغما عن أنوفهم •

فعن محمد بن كعب قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا حليما قال ذات يوم وهو جالس في نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد يا معشر قريش ألا أقوم الى هذا فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ويكف عنا قالوا بلى يا أبا الوليد فقام عتبة حتى جلس الى الرسول ﷺ فقال : يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفقت له احلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا الوليد اسمع :

قال يا ابن أخى ان كنت تريد بما جيئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا •

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع

رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما
غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبه قال له النبي ﷺ .

أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم : قال اسمع منى قال : أفعل فقال رسول
الله ﷺ :

« حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم
يعلمون » .

فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمع بها عتبه وأنصت له
وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمدا عليها ليسمع منه حتى انتهى

رسول الله ﷺ الى السجدة فسجدها ثم قال :

سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت . قال : فأنت وذاك ثم قام عتبه
الى أصحابه . فقال بعضهم لبعض . نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير
الوجه الذى ذهب به فلما جلسوا اليه قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :
ورأى أنى والله سمعت قولا ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة
يا معشر قريش أطيعونى وأجعلوها بى خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه
واعترلوه والله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ .

ولقد كان زعماء مكة من أئمة الكفر يتسللون الى جنح الظلام بعيدا
عن الأعين يلتفون حول بيت رسول الله ﷺ لسماع القرآن الكريم .

فلقد روى ابن إسحاق والبيهقى عن سعيد بن المسيب (١) :

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٧٠

أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع منه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلازموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر فجمعهم الطريق قال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا فلما كانت الليلة التالية أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا •

ورأس الكفر الوليد بن المغيرة يسمع بعض آيات من القرآن الكريم فتنفذ الى مشاعره وتستحوذ على كيانه ويتحير فى وصف القرآن الكريم •

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل على النبى ﷺ سورة غافر قرأها النبى ﷺ فى المسجد فسمعها الوليد ثم انطلق الى مجلس بنى مخزوم فقال :

والله لقد سمعت من محمد كلاما أنفا ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن ان أسفله لمغدق وان أعلاه لمونق (١) • وان له لحلاوه وان عليه لطلاوه (٢) وانه يعلو ولا يعلى عليه •

فهؤلاء ونظائريهم ممن كانوا يستمعون القرآن فينقذ الى قلوبهم غير انهم سرعان ما يعودون الى عنادهم وكفرهم وهناك أناس ممن كتب الله لهم الخير وشرفهم بالاسلام حينما استمعوا للقرآن الكريم انشروحت صدورهم

(١) مونق : حسن معجب •

(٢) الطلاوة : الحسن والقبول •

للاسلام ومن هؤلاء عمر بن الخطاب الذى كان شديد العداوة للرسول ﷺ شديد البطش بالمسلمين حتى انه أعد العدة لاغتيال الرسول ﷺ ولكنه ما يكاد يسمع فى بيت أخته لآيات من سورة طه حتى بادر الى دار الأرقم بن أبى الأرقم ليعلن اسلامه .

وما حدث فى مكة يحدث أيضا فى المدينة حينما أوفد الرسول ﷺ مصعب بن عمير الى الأنصار ليقرأ عليهم القرآن ويعرفهم بالاسلام ولقد اعترضه يوما أسيد بن حضير سيد بنى عبد الاشهل قائلا له ولأسعد بن زار ه .

ما جاء بكما الى حيننا تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا ان كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال : مصعب :

« أو لتجلس فتستمع ؟ فان رضيت أمرنا قبلته وان كرهته كفنا عنك » .

فقال له أسيد أنصفت وألقى حربته الى الأرض وجلس يصغى ولما انتهى مصعب من قراءته قال أسيد :

ما أحسن هذا القول وأصدقه كيف يصنع من يريد أن يدخل فى هذا الدين ؟

قال مصعب : يظهر ثوبة وبدنه ويشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

فغاب أسيد بعض الوقت ثم عاد يقطر ماء الطهور من رأسه وأعلن اسلامه وأسلم أيضا عند سماع القرآن فى نفس المجلس سعد بن عبادہ وسعد بن معاذ رضى الله عنهم .

هذا ولم يكن تأثير القرآن على العرب فحسب بل شمل الاعاجم.

فالنجاشى ملك الحبشة ينصت فى خشوع الى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وهو يقرأ سورة مريم وما يكاد يفرغ من قراءته الا والنجاشى يبكى حتى تخضل لحيته ويقول :

« ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » •

وما زالت ملايين المسلمين التى لا تعرف اللغة العربية حينما يسمعون القرآن الكريم تتأثر به قلوبهم وينهمر الدمع من عيونهم كما قال تعالى :

«ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هدينا واجتبيينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » •

سورة مريم (٥٨)

لكن ما سر ذلك التأثير ؟ وما مصدره ؟

الواقع أن لهذا التأثير أسباب كثيرة أهمها :

١ - أنه كلام الله وهو سبحانه وتعالى أعلم بما يجتذب الالباب ويحرك المشاعر •

٢ - بلاغة الأسلوب وجمال التصوير وجلال المعانى وموافقة الطبع ولمس السرائر ورؤى المستقبل وأحداث التاريخ وإشارات العلوم (١) •

الامر الثانى : اصطفاء الله الرسول ﷺ :

من أكرم بيوت العرب وأغرقها نسبا وأعلاها منزلة •
قال تعالى : فى سورة التوبة (آية ١٣٨) :

(١) واقعية المنهج القرآن : توفيق محمد سبع ص ٤٢٩

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤف رحيم » •

ووجوه العظمة في حياة الرسول ﷺ متعددة الجوانب كثيرة العطاء
أنى إتجه الباحثون الى السيرة العطرة وجدوا زاداً لا ينفد ومعيناً لا ينضب
ومدداً لا ينقطع من الكمال الانساني والسمو الأخلاقي •

ومن معالم عظمته ﷺ فصاحة كلامه وروعة بيانه وبلاغة حديثه مما
كان له جليل الأثر في رقى الخطابة والنهوض بأساليبها مما سنعرض له بين
ثنائنا هذا البحث على النحو التالي :

أولاً - تعريف : الفصاحة - البلاغة - البيان

١ - الفصاحة في اللغة (١) :

الظهور والبيان يقال أفصح الصبح اذا بان ضوءه وفي الأمثال :
« أفصح الصبح لذى عينين » يقال للأمر اذا ظهر وانكشف بعد خفائه
واستتاره ومنه قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام :

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » أى أيبين قولاً •

والفصيح (١) : المنطلق اللسان في القول الذى يعرف جيد الكلام من
رديئه •

يقال كلام فصيح أى بليغ ولسان فصيح أى طلق •

٢ - البلاغة في اللغة (٢) :

الوصول والانتهاء يقال بلغت هدفى اذ وصلت اليه ، وتبالغ به الفرع
تناهى •

(١) لسان العرب ص ٣٤١٩ ط دار المعارف •

(٢) النار في علوم البلاغة : عبد الحكيم النعناع ص ١٢ ، ١٦

قال البوصيرى فى مدح الرسول ﷺ :

فبمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وقال الشاعر فى الفخر :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخرله الجابرة ساجدينَا

يريد إذا وصل الرضيع من قومه زمن الفطام .

وتعريف البلاغة فى الاصطلاح :

« تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة فصيحة تأسر النفس وتثير الوجدان أو هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال والبليغ من الرجال : هو الفصيح الذى يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه » (١) .

٣ - (١) البيان فى اللغة :

ما يبين به الشئ من الدلالة وغيرها ويان الشئ بياناً (اتضح) .
وفى الاصطلاح : اظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو من الفهم وذكاء القلب .
هذا وقد وضع علماء البلاغة قواعد الفصاحة فى علوم المعانى والبيان والبديع .

ثانياً - بلاغة الرسول ﷺ

لقد كان رسول الله أفصح خلق الله لسانا وأوضحهم بيانا (٢) .

قال الامام العلامة أبو سليمان الخطابى رحمه الله تعالى :

(١) لسان العرب ص ٣٤٦ ط دار المعارف .

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ص ١٢٨

اعلم أن الله تعالى لما وضع رسول الله ﷺ موضع البلاغ من وحيه ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعذبها ومن الألسن أفصحها وأبينها ثم أمدّه بجوامع الكلم التي جعلها رداءً لنبوته وعلمًا لرسالته لينتظم في القليل منها علم كثير يسهل على السامعين حفظه ولا يؤدّهم حمله ومن تتبع الجوامع من كلامه ﷺ لم يعدم بيانها .

وقال الجاحظ في كتابه البيان والتبين يصف فصاحة الرسول ﷺ وبلاغته :

« هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكليف وكان كما قال الله تعالى قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيد استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الحوشى ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق الا عن ميراث وحكمه ولم يتكلم الا بكلام خف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق .

وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام وهو مع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع الى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ولا بادت له حجة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ولا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلج « النصر » الا بالحق ولا يستعين بالخلابة « الخديعة والمكر » ولا يستعمل المواربة ولا يلمز ولا يهزم ولا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعا ولا أحسن لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا لا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين من فحواه من كلامه ﷺ .

هذه البلاغة وتلك الفصاحة التي انفرد بهما ﷺ لا تقاس بمقاييس البشر . فان عظمة الرسول ﷺ ليست من قبيل ما تعارف عليه الناس ولا تحددها المعايير والضوابط الانسانية ولا تقارن بها عظمة عظيم أو عبقرى من العباقر أو فصيح من الفصحاء اذ أن النبی ﷺ أعلى قدراً وأسمى منزلة لأنه بشر يوحى اليه .

يقول الأديب الراحل أحمد حسن الزيات (١) .

ان بلاغة الرسول من صنع الله وما كان من صنع الله تفيق موازين الانسان عن وزنه وتقتصر مقاييسه عن قياسه . فنحن لا ندرك كنهه وانما ندرك أثره ونحن لا نعلم انشاءه وانما نعلم خبره . وهل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة .

ان البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية .

واذا كان كلام الله (كتاب) البيان المعجز فان كلام الرسول « سنة هذا البيان » وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فان البلاغة صفة رسول الله ﷺ وحده

تجمعت فيه ﷺ خصائص البلاغة بالفطرة وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة . فقد ولد في بنى هاشم ونشأ في قريش واسترضع في بنى سعد وتزوج من بنى أسد وهاجر الى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج .

وهذه القبائل التي تقلب فيها الرسول هي بالاجماع أخلص القبائل لسانا وأفصحها بيانا وأعذبها لهجة . والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق انما هي المخالطة والمحاكاة .

ثم كمله برجاجة العقل وسماحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن . وتمكن اللسان . ومحض السليقة ليكون لسانا لكلمته مظهراً لكنوزه ثم أخذ يتصرف في التجارة على عادة قوم فضرب في الآفاق وتنقل في الأسواق

(١) وهي الرسالة : أحمد حسن الزيات - عدد يناير ١٩٤٨

فراى المناظر الجديدة وسمع المناطق المختلفة وحصل المعارف العامة والأسرار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق ذهن وتردد القل وتزيد المعرفة ثم كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف فى غار حراء يتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافى اللطيف الى الملأ الأعلى ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل السكوت . فاذا تكلم اختصر من اللفظ واقتصر فى الحاجة وألقى الكلام بينا فصلا يحفظه من جلس اليه ولو عده العاد لأحصاه كما قالت السيدة عائشة . كل أولئك قد مكن للرسول ﷺ من ناصية البلاغة فأسلست له الألفاظ وأسمحت له المعانى فلم يند فى لسانه لفظ ولم يضطرب فى أسلوبه عبارة ولم يعزب عن علمه لغة ولم ينب عن خاطره فكرة .

هذه الفصاحة لم تقتصر على لغة قريش ولكن تجاوزتها لتشمل اللهجات العربية فى أنحاء شه الجزيرة العربية مما جعل الصحابة يعجبون من تلك الفصاحة يقول الامام على كرم الله وجهه يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثر فقال :

« ادبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد » .

أثر القرآن الكريم فى بلاغة الرسول ﷺ

لقد أحدث القرآن الكريم انقلابا شاملا فى حياة العرب فاستطاع أن يغير نظم حياتهم ومعتقداتهم وأخلاقهم وتمكن الرسول ﷺ بما أوحاه الله اليه وبما أجراه على لسانه وقلبه من الحكمة وفصل الخطاب أن يرد الانسان الى فطرته وأن يعرفه بخالقه وأفصح عن مكانة الانسان فى هذا الكون ورسالته فى الحياة .

ولقد انعقد لواء الخطابة لرسول الله ﷺ فعلا نجمعها وسمت مكانتها وارتفع شأنها فى الاسلام .

هذا وبجانب الاستعداد الفطرى والاعداد الالهى للرسول ﷺ فلقد أشرق القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وصحبه ثلاثة وعشرين عاما فانعكست أنواره على الخطابة فتطورت من حيث الأسلوب والاداء والأغراض فبينما كانت الخطابة قبل الاسلام تنحصر فى امداد بعض الحكم والنصائح التى جرت على السنة حكمائهم أو اتجهت نحو المفاخرة والمنافرة أو المدح والهجاء أو استحاشة المشاعر واثارة العواطف لايقاد نار الفتنة وتسعير الحروب نجدها فى الاسلام تدعو للايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والى الفضيلة ومكارم الأخلاق ولقد اتجه القرآن الكريم بالخطابة الى :

أولا : سمو الأغراض :

اتسمت الخطابة فى الاسلام بسمو الغرض ونبيل المقصد فاتجهت الى التعريف :

- ١ - بالاسلام شارحة أحكامه موضحة عقائده وعباداته .
- ٢ - اتجهت الخطابة الى ميدان كانت العرب تسقطه من حياتها وهو عالم الايمان بالله وبالرسل والملائكة واليوم الآخر بما يحمل بين ثناياه من بعث وثواب وعقاب وجنة ونار .
- ٣ - كانت الخطابة هى لسان الاسلام الداعى الى مكارم الأخلاق الناهى عن زميم الصفات وحثت المسلمين على الجهاد فى سبيل الله واعلاء راية التوحيد ولقد نهل الخطباء من القرآن الكريم والسنة النبوية وارتشفوا من رحيقهما مما كان له عظيم الأثر فى نشر الاسلام .

ثانيا : ارتقاء الأساليب :

ارتقى القرآن الكريم بأسلوب الخطابة فأضفى عليها دقة الأسلوب وسمو المعنى وانتقاء اللفظ وحسن التشبيه وضرب الأمثال وسوق القصص

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه الخطابة ص ٢٦٠

أفاد القرآن الكريم الخطابة أعظم فائدة وجنت منه أكبر الثمرات،
ولقد كانت فائدتها من ناحيتين :

أ - فقد أكسبها دقة في المعنى اذ قد أتى بمعان لم يتورد العرب من قبل
مواردها كانوا قوما حسيين ولغتهم حسيه فجاء القرآن الكريم وحدث
عن النفوس ووصفها فأحسن وصفها • حلل نفس الضال وعلة ضلاله
ونفس المهتدى وعريق اهتدائه ، صور تقلبات القلوب وخلجات
النفوس وما يؤثر في المشاعر فدعا ذلك المسلمين الى الاعتراف من
منهله العذب • وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية وسمت اللغة
العربية الى مستوى ما كان يتهيا لها بغير القرآن الكريم وأثر القول
في الأمور المعنوية وحسن تصويرها جلى لا يحتاج الى تبيان •

ب - جاء القرآن في لفظ سهل متين خال من الالفاظ الخشنة الجافة يصل
الى الأغراض من أقرب مسالكها فأعجب بذلك فارئوه وسامعوه فحاكوه
في نهجه وان لم يساموه في قدره وتهذبت به اللغة أتم تهذيب فسهلت
عباراتها ورقت أساليبها وأسانست ألفاظها • اذ سن لها نوعا من
التعبير لم تنتهجه فكان فتحاً جديداً فيها بالفاظه وأساليبه كما كان
فتحاً جديداً في العالم كله بهديه وتقويمه وتأديبه وأثر ذلك في ألفاظ
الخطابة واضح غير خفى •

وعن مدى تأثير الخطباء بالقرآن الكريم يقول رحمه الله :

ان الخطباء قد أخذوا ينهجون نهج القرآن في الاستدلال اذ وجدوا
فيه أبلغ طرق الاقناع الخطابى فلقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن
ان يجتمع في أدلة سواه اذ تجد فيها استقامة المعنى اذا قستها بمقياس المنطق

تجدد المقدمات قد تلاعمت مع نتائجها وتوافرت فيها شروط الانتاج كما تجد فيها جمال اللفظ وجودة الأسلوب ومخاطبة الاحساس واثارة الرغبة .

وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك فوجدوا فيه معلماً لطرق الاقتناع والاستلال لا يقاضيهـم أجر فتأثروا بطريقته واقتسموا من عباراته وشاع بينهم الاقتباس منه حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على القرآن الكريم .

قال الجاحظ :

كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن الكريم وتزين بالصلاة على النبي ﷺ بالشوهاء .

أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في الخطابة

لقد حدد الله سبحانه وتعالى للرسول منهج الدعوة في قوله تعالى :
« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين » وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

سورة النحل (١٢٥ - ١٢٨)

ان هذه الآيات تحدد للرسول ﷺ ولائته منهج الدعوة الى الله وهو منهج متكامل يقوم على بصيرة مستنيرة وقلب واع وفكر حصيف ورأى ثاقب وعبرة مسيرة الاسلام فى مكة والمدينة كان للخطابة الدور الفعال والمؤثر فى الدعوة الى الله .

وكان فارس حليتها وممتشق حسامها ورافع لواءها هو رسول الله ﷺ
الذى أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب فأقام للخطابة دولة وجعل لها صولة
وجولة وتاريخ الدعوة الإسلامية حافل بالمواقف التى حسمتها الكلمة المؤثرة
بالموعظة الحسنة . وبالخطب البليغة ومن ذلك ما يلى :

١ - اخمد نار الفتن التى كادت تعصف بالمسلمين ومن ذلك :

١ - القضاء على محاولات اليهود فى الوقية بين الأوس والخزرج
فحينما استقر الرسول بالمدينة وأسس دولة الاسلام وضرب الكفر
ضربات موجعة قاتلة أكل الغيط والحقن قلوب اليهود بسبب
تآلف الأوس والخزرج بين ظلال الاسلام فبذلوا قصارى كيدهم
وغاية مكرهم لزرع الفتنة بين المسلمين وبث سموم الفرقة
والتناحر بينهم واشعال نار العداوة التى أطفأ الاسلام لهيبتها
ولقد كادت تحدث كارثة لولا لطف الله بالأوس والخزرج وحكمة
الرسول ﷺ فى معالجته الأمر وخطبته الموجزة البليغة المؤثرة
التي سكنت بها القلوب الثائرة .

فلقد مر شاس بن قيس - وكان يهوديا عظيم الكفر شديد
الحقد على المسلمين على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من
الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاضه
ما رأى تألفهم واجتماعهم بعد ان كانوا أعداء فى الجاهلية فقال

لقد اجتمع ملائكة بنى قبيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم
إذا اجتمع ملائكة بها من قرار فأمر فتى من اليهود أن يندس بين
الانصار ويذكرهم بيوم بغاث الذى اقتتل فيه الأوس والخزرج
اقتتالا شديداً وأنشد هذا الفتى اليهودى بعض ما قيل من
الأشعار فى هذا اليوم .

فدبت الفتنة بين الجالسين وأطل الخلاف والشجار برأسه
بين المجتمعين وتواثب رجالان من الأوس والخزرج واستنفر
كل منهما قبيلته وتوعد كل منهما الآخر فبلغ ذلك الرسول ﷺ
فأسرع اليهم في جمع من المهاجرين ليطفئ النار قبل أن يشتد
أوارها ويخمد جزوة الحرب قبل أن تضطرم نارها ووقف ﷺ
بين الأوس والخزرج يخطب في حماسة زائدة وانفعال مؤثر قائلاً

يا معشر المسلمين : الله الله اتعودون للجاهلية وأنا بين
أظهركم بعد أن هداكم الله بالاسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر
الجاهلية واستنقذكم من الكفر وألف بينكم فترجعون اى ما كنتم
عليه كفارا ؟

فعرف القوم أنها نزعة شيطان وكيد من عدوهم فالتقوا
السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا .

وهكذا اجتثت نار الفتنة في مهدها .

ب - اخمد نار الفتنة عقب فتح مكة ومعركة حنين كادت تحدث بين
المسلمين عقب معركة حنين فتنة شديدة ولولا زكاء النبي ﷺ
وفطنته وبلاغته لنشب بين المسلمين صراع رهيب ولأطلت
العصبية الجاهلية برأسها كالافعى تنفت سموم الجاهلية
والكراهية بين الأنصار وبين من أسلم بعد فتح مكة وقد تحرك
الشيطان ليوغر صدور المسلمين نحو رسول الله ﷺ فعقب
الانتصار في معركة حنين بعد فتح مكة غنم غنائم كثيرة قسمها
على قريش وقبائل العرب ومن أسلم يوم فتح مكة حتى أنهم
اجتمعوا عليه واضطروه الى شجرة فانتزعوا رداءه .

فقال : أيها الناس ردوا على ردائي فوالذى نفسى بيده (١)
لو كان عندى عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ثم
ما ألقتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .

هذا ولم يعط الأنصار من غنائم حنين شيئاً فوجدت نفوسهم
على هذا التقسيم ووسوس الشيطان اليهم غداة هذا النصر
العظيم بمقولة خطيرة رهى قول :

أما من قاتله فيعطيه وأما من لم يقاتله فلا يعطيه ؟
وقال قائلهم :

لقى والله رسول الله ﷺ قومه وجاء فى صحيح البخارى
عن أنس بن مالك قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله
ما أفاء من أموال هوازن فطفق النبى ﷺ يعطى رجلاً المائة
من الأبل فقالوا :

يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا
تقطر من دمائهم .

ولقد سمع الرسول بهذه المقولة الخطيرة وأحسن بمكن
الخطر فى انتشارها والنتائج الخطيرة التى سوف تترتب عليها
فجمع الأنصار فى حظيرة واحدة وقام فيهم خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

يا معشر الأنصار ألم آتكم ضللاً فهداكم الله وعالة فآغناكم
الله وأعداء فالق بين قلوبكم قالوا بلى ثم قال رسول الله ﷺ :

ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟

(١) البداية والنهاية لأبن كثير ج ٤ ص ٣٥٨ دار المعارف .

قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن
لله ولرسوله قال :

« والله لو شئتم لقلتم فصدقتم جئتنا طريدا فأويناك ،
وعثلا فأغنيناك ، وخائفا فأمناك ومخذولا فنصرناك » .
فقالوا :

المن لله ولرسوله فقال ﷺ :

« أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا
تألفت بها قوما أسلموا ووكلتكم الى ما قسم الله لكم من الاسلام
أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس الى حالهم بالشاة
والبعير وتذهبون برسول الله الى رجالكم فوالذي نفسى بيده
لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب
الأنصار ولولا الهجرة لكنت أمروا من الأنصار اللهم أرحم
الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتى
اخضلت لحاهم وقالوا :

« رضينا بالله ربا ورسوله قسما ثم انصرفوا وتفرقوا » .

بهذه الخطبة العصماء والبيان البديع أجتث رسول الله
الفتنة من جذورها وقضى عليها في مهدها وأعاد للقلوب وحدتها
وللنفوس صفائها .

٢ - ايقاذ مشاعر المسلمين في البذل والعطاء :

فحينما كانت تحل بالمسلمين نازلة أو تصيبهم جائحة يقف ﷺ خطيباً
يستجيش المشاعر ويحرك العواطف نحو البذل والعطاء فما يكاد
ينتهي من كلامه حتى يتسابق المسلمون لبذل ما لديهم من مال أو متاع
في تنافس عجيب عن طوعية وحب وإيثار .

فعن أبى عمرو جرير بن عبد الله رضى الله عنه . قال : كنا في صدر النهار فجاءه قوم عراة مجتابى النمار أو العباء متقلدى السيوف، عامتهم بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام ثم صلى ثم خطب فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ... الى قوله تعالى « ان الله كان عليكم رقيبا » والآية الأخرى التى فى آخر الحشر :

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لعد » .

تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره حتى قال ولو بشق تمره فجاء رجل من الانصار بصره كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه فقال ﷺ :

« من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »
رواه مسلم

فهذه الخطبة الموجزة أيقظت المشاعر وحركت العواطف نحو المسلمين الذين عضهم الفقر بنابه وهرعوا الى رسول الله ﷺ يطلبون الغوث والنجدة فتسابق لصحابة لمواساتهم ومساعدتهم فسر الرسول ﷺ حتى ظهر البشر فى وجهه الكريم .

٣ - معالجة أسباب الانحراف في السلوك :

كان منبر الرسول ﷺ بالمسجد النبوي الشريف وسيلة الاعلام الرئيسية للدعوة الى الله ولم يكن يقتصر على خطب الجمعة فحسب ولكن كلما حدث أمر يستوجب المعالجة أو برز بين المسلمين تصرف يسيء للسلام أسرع ﷺ الى مسجده ووقف بين أصحابه خطيبا يقوم المعوج ويرشد العاصي ويعالج السلوك السيئ بالحكمة والموعظة الحسنة ومن ذلك :

ما روه عن أبي حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال :

استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزديين يقال له ابن اللتيبة على الصدقة فلما قدم قال :

هذا لكم وهذا أهدي الى فقام رسول الله ﷺ الى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل فيأتي ويقول هذا لكم وهذا هدية أهديت الى أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيء بغير حقه الا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء (١) أو بقرة لها خوار أو شاه تيعر ثم رفع يديه حتى رأى بياض ابطيه فقال :

اللهم هل بلغت

متفق عليه

٤ - الدعوة الى الجهاد والثبات في مواطن الجهاد :

وقف رسول الله ﷺ خطيباً في ميادين الوغى وساحات القتال ومواطن الجهاد يعبىء النفوس ويشحر الهمم ويشد العزائم . يقول الامام العلى كرم الله وجهه .

« انا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله وهو اقربنا الى العدو » .

رواه أحمد والطبري والنسائي

ففى يوم بدر اندفع ﷺ - والمركة على أشدها - فى شجاعة فائقة ، وجسارة شديدة بين صفوف المقاتلين يعصف وجوه المشركين بحصيات فى يده فتتحول الى حمم تصيب الأعداء ويصرخ فى المسلمين قائلًا :

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابر محتسب مقبل غير مدبر الا دخل الجنة » .

فاشعلت هذه الكلمات الحماس فى صدور المجاهدين وتسابقوا نحو احدى الحسنين النصر أو الشهادة لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم وأسفرت المركة عن نصر الله لجنده المؤمنين والهزيمة الساحقة لأعداء الله المشركين .

ويوم حنين من الأيام المشهودة فى تاريخ الاسلام فحينما انهزم المسلمون فى الجولة الأولى لركونهم الى كثرتهم واعتزازهم بقوتهم ووقف ﷺ فى الميدان ومعه نفر قليل من أصحابه ينادى القوم ويخطب فيهم ويتجه صوب العدو فى شجاعة كبيرة ورباطة جأش يخطب فى جنده يستئسير حماسهم ويستنهض هممهم ويقوى عزائمهم ويذكرهم بما عاهدوا الله عليه من الجهاد فى سبيل الله والثبات .

وتحدث العباس عم الرسول ﷺ عن هذا اليوم فيقول « شهدت
مع رسول الله ﷺ (١) :

يوم حنين فلزمت أنا وأبو سيفان بن الحارث رسول الله ﷺ لم
تفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له شهباء فلما التقى المسلمون والكفار
وولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار
وأنا أخذ بلجام بغلة الرسول ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع أن لا تسرع وهو
لا يألو ما أسرع نحو المشركين يدعو الله قائلا :

« اللهم أنى أنشدك ما وعدتني اللهم لا ينبغي أن يظهر
علينا » .

قال العباس فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ناد يا معشر
الأنصار يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة » .

ونزل الرسول ﷺ من فوق بغلته واتجه صوب العدو وهو يقول

« أنا النبی لا کذب أنا ابن عبد المطلب اللهم أنزل نصرک » .
وتجاوب المسلمون لهذه الكلمات وتجمعوا من كل حدب وصوب يلتفون
حول رسول الله ﷺ وكروا على أعداء الله فأنزلوا بهم هزيمة ساحقة .

وهكذا كانت الخطبة في كل مراحل ومواقف الدعوة الإسلامية
ذات أثر فعال في استثارة مشاعر المسلمين وتربية عقولهم وكان ﷺ
يستخدم سلاح الحكمة كلما نزل بالمسلمين أمر . أو أراد توجيه المسلمين
إلى خير أو ينهائهم عن الشر .

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٥ ص ٤٧٥

هديه صلى عليه وسلم في الخطابة وتأثر الخطباء به :

أقام ﷺ للخطابة دولة فأرسى قواعدها وشيد أصولها وفنونها حتى غدت الخطابة من معالم الاسلام الرئيسية وأصبح المسجد والمنبر شمس الدعوة الى الله يبعثان نور الايمان في أى مكان . فكل منبر في مسجد على أديم هذه الأرض هو امتداد لذلك المنبر المتواضع الذى كان لا يتجاوز ثلاث درجات الذى ربه عليه ﷺ ملائكة البشر وقادة الانسانية وعظماء الجنس البشرى . وكل خطيب يقف على منبر الاسلام في المساجد أو المحافل فانما هو قبس من ذلك الشعاع الذى انطلق من مكة والمدينة فأزال غشاوة العقول وأذاب صداً القلوب .

ولقد كان هديه ﷺ في خطبه على الوجه التالى :

أولا : من ناحية الهيئة :

١ - كان ﷺ يخطب على الأرض وعلى البعير والناقة أو من مكان مرتفع كجبل الصفا عند بدء الدعوة .

وحينما شيد المسجد النبوى بالمدينة كان يخطب مستندا الى جذع نخله ثم اتخذ المنبر بعد ذلك .

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما (١) .

أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله ألا أجعل

لك شيئا تقعد عليه ؟ فان لى غلاما نجارا ؟

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٩ ص ١٧٠

قال : ان شئت : فعملت المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد ﷺ على المنبر الذى صنع فصاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبى ﷺ حتى أخذها فضمها اليه فجعلت تنن أنين الصبى الذى يسكت . قال : الرسول ﷺ أو راوى الحديث بكت على ما كانت تسمع من الذكر .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح المنبر من معالم الاسلام البارزة ينفرد به عما سواه من الأديان الأخرى وأبدع المسلمون عبر تاريخ الاسلام فى صناعته والاهتمام به وغدا مدرسة للدعاة تخرج من فوقه الخطباء والمتحدثون الذين نشروا الاسلام وشرحوا أحكامه وتشريعاته .

٢ - ومن هيئته ﷺ كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول :
صبحكم ومساكم يقول :

بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى رواه الامام مسلم

٣ - كان ﷺ يقطع خطبته اذا عرض له عارض ثم يعود فيخطب أو اجابة لسؤال أحد أصحابه .

جاء الحسن والحسين يعثران فى قميصين أحمرين فقطع كلامه فنزل فحملهما ثم عاد الى منبره ثم قال : صدق الله العظيم « انما أموالكم وأولادكم فتنة » رأيت هذين يعثران فى قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامى وحملتهما » . رواه الخمسة

٤ - كان ﷺ يستقبل الناس بوجهه ويلقى السلام : فلقد روى أن النبي ﷺ كان اذا صعد المنبر يوم الجمعة واستقبل الناس بوجهه قال : السلام عليكم » .

ثم يجلس بين الخطبتين جلسة خفيفة .
ولقد ظلت هذه الهيئة المباركة مستقرة في وجدان الخطباء يتوارثونها جيلا بعد جيل .

ثانياً : كيفية خطبته صلى الله عليه وسلم :

اتسمت خطب الرسول ﷺ بسمات معينة ومعالم خاصة كانت ملهمة للبلغاء والفصحاء ومن هذه المعالم ما يلي : -

١ - أن تكون كلمات الخطبة قليلة جامعة في بيان فصيح وأداء بليغ قال ﷺ :

« ان طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقه » .

وروى الحكم بن حزن رضى الله عنه قال (١) .

« وفدت الى النبي صلى الله عليه وسلم فشهدنا معه الجمعة فقام متوكئا على قوس أو عصا فحمد الله وأثنى عليه بكلمات خفيفات طيبات مباركات » .

ويقول جابر بن سمرة رضى الله عنه .

« كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم قصراً وخطبته

قصدا » (٢) .

(١) المجموع شرح المذهب ج ٤ ص ٥٢٦

(٢) القصد : التوسط والاعتدال .

٢ - البدء بحمد الله تعالى :

كان ﷺ لا يخطب خطبة الا افتتحها بحمد الله وكان في خطبه يتشهد بعد الحمد والثناء ويذكر فيها اسمه العلم ﷺ وكثيرا ما كان يخطب بالقرآن الكريم وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت :

« ما أخذت ق والقرآن المجيد الا عن لسان رسول الله صلى عليه وسلم يقرؤها كل يوم جمعة اذا خطب الناس • كما شملت خطبه صلى الله عليه وسلم الأمر بتقوى الله والاستغفار » •
هذه هى معالم خطب النبى ﷺ •

هذا ولقد كانت الخطابة تشمل ميادين كثيرة كخطب العيدين والاستسقاء • وخطب الجهاد فى سبيل الله وغير ذلك من الميادين •

وقد كان لأحاديث الرسول ﷺ وخطبه أثر عظيم فى الخطابة من ناحية المعنى •

فلقد أضافت الخطب الى اللغة العربية معان كثيرة تفيض بالحكمة والموعظة الحسنة • وقد سبق لنا أن ذكرنا المعانى العالية والبيان البديع لكلامه ﷺ •

هذا ولقد تأثر ببلاغة الرسول ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم ولا سيما الخلفاء الراشدون يتضح ذلك من خلال خطبهم الدينية والسياسية يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة (١) •

(١) الخطابة (٢٦٨) •

وأول ما يلاحظه القارئ لخطب ذلك العصر أن الخطبة
صارت مجزأة ومقسمة كل قسم يلحق سابقه .

تبتدىء بمقدمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه ويثنى
عليه بما هو أهله ويصلى على النبي ﷺ ثم يهجم على الموضوع
فيقدم ما يراه دليلاً لدعواه وبرهاناً لما يراه وبعد أن يتم القول
فيه ويوفى على الغرض يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يدعوه
أن يوقفه إلى الرشاد ويلهمه السداد ولقد أكثر الخطباء من
الاقتباس من القرآن والاستشهاد به والاستدلال بالمأثور عن
النبي ﷺ .

هذا ولقد أثرت بلاغة الرسول ﷺ في الخطباء عبر تاريخ
الاسلام حيث تطورت في الأداء والأسلوب ، وصدق العاطفة
والجراءة في الحق والشجاعة في مواجهة الظالمين .

ولقد أثمرت هذه البلاغة النبوية في الصحابة الذين كانوا
فرسان الكلمة وأرباب البيان على أعواد المنابر أو ساحات
الوعى أو في دار الخلافة . ولقد شاعت إرادة الله تعالى أن تظل
تلك الفصاحة والبلاغة مشرقة وضاءة تتلألأ من بين ثنايا أحاديث
الرسول ﷺ وخطبه يحفظها الرواة وتدونها الكتب وتتوارثها
الأجيال وتهتز بها المنابر والمحافل وتنساب إلى القلوب فتزكيها
والنفوس فتشرحها والعقول فتغذيها بغذاء الاسلام وتصبغها
بصبغة الايمان قال تعالى :

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

سورة البقرة (١٣٨)

هذا وبالله التوفيق ،